تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

تشريد المشرَّد وتجويع المجوَّع "إسرائيل الكبرى" بعد غزو غزة؟

بعد مضي 23 شهرا تذهب اسرائيل - نتنياهو الى جولات جديدة من القتال بمسميات وذرائع جديدة، وتعيد في هذا الاطار احتضان فكرة "اسرائيل الكبرى". وبينما قد يحمل ايلول 2025، موعدا لاعتراف عشرات الدول بالدولة الفلسطينية، تعلن اسرائيل عن غزو غزة بالكامل، وضم الضفة الغربية للقضاء نهائيا على خيار "حل الدولتين"

ما كان يبدو مشهدا سوداويا قبل شهور، جعلته اسرائيل الآن اكثر قتامة. بنيامين نتنياهو مطلق اليدين مع عصابته الحكومية، وادارة اميركية لا تبدو مستعدة لممارسة أي شكل من اشكال الضغط عليها، بل ان ادارة دونالد ترامب تتصرف، مثلما تظهر وقائع مشهد الاحتراق الاقليمي، انها تتبنى وتتفهم - واحيانا تساند بقوة - السلوك الاسرائيلي الذي يقود المنطقة الى جحيم.

وردا على دعوات متزايدة واعترافات متتالية بالدولة الفلسطينية، وهي خطوة ستحظى، بعد تحركات ديبلوماسية سعودية وفرنسية مشتركة، بزخم كبير بعد 9 ايلول 2025 مع انعقاد الجمعية العامة للامم المتحدة. وفيما تراوح العمليات العسكرية الاسرائيلية في غزة مكانها، في دائرة التدمير والخراب والقتل والتجويع الذي لم يسبق له مثيل في الحروب، وتواصل اعتداءاتها على لبنان وسوريا، لجات حكومة نتنياهو الى الهروب للامام.

في 12 آب الماضي، كشف نتنياهو عن مكنونات افكاره غير المعلنة. ففي مقابلة مع قناة "اي 24" الاسرائيلية، سأله الصحافي عما اذا كان يتبنى "رؤية اسرائيل الكبرى"، عارضا عليه "خارطة الارض الموعودة"، فرد نتنياهو مرتين: "بالتأكيد". ووصف الخارطة قائلا: "انها اسرائيل الكبرى"، مضيفا "غالبا ما افكر بوالدي، بجيل آبائنا الذي كان عليه تأسيس الدولة، وجيلنا، جيلي. علينا ضمان استمرار وجودها، وارى في ذلك مهمة عظيمة".

لقد اثارت تصريحاته هذه عاصفة من الردود المنددة. فما يسمى "اسرائيل الكبرى" هو خرافة يدعي الاسرائيليون، وخصوصا من اليمين المتطرف، انها توراتية من زمن الملك سليمان. لكن ان يؤكد عليها رئيس الحكومة الاسرائيلي الآن، وفي ظل هذه الظروف، والاوضاع الاقليمية الملتهبة، وحربه التي كان يدعي بداية انها ضد حركة حماس وتحولت تدريجا الى حرب اقليمية، اثار الكثير من القلق والتوتر في القاهرة وبيروت والرياض وعمان وبغداد وطهران وابوظبي وغيرها.

صحيح ان فكرة "اسرائيل الكبرى" طرحت سياسيا في اطار حكومي منذ ايام حكم الليكود في العام 1977، لكنها مرتبطة بمعتقدات دينية غير مثبتة باصول هذه الدولة، الا ان الحركة الصهيونية تبنتها منذ نشأتها قبل اكثر من 100 سنة. ومن المفترض ان هذه الدولة تتضمن كل اراضي فلسطين التاريخية، ولبنان وسوريا والاردن والعراق، وجزء من مصر والسعودية بما في ذلك مدينتا مكة والمدينة.

ليس من الممكن الركون الى فكرة ان تصريحات نتنياهو هي مجرد كلام دعائي لـ"شد العصب" الداخلي، ذلك ان الوقائع على الارض تشير الى انه لا يكتفي بمسايرة حليفه وزير المال المتطرف بتسالئيل سموتريتش، وانما يسير على النهج الذي يتبناه.

فبعد يومين فقط على تصريحات نتنياهو حول "اسرائيل الكبرى"، قال سموتريتش ان "الضفة الغربية جزء من اسرائيل بوعد الهي، ونتنياهو يدعمني في ما يتعلق بالضفة الغربية.. وسنصادر الاف الدونمات ونستثمر المليارات لادخال مليون مستوطن الى الضفة الغربية.. لقد تأخرنا 20 سنة، ونعلن بشكل واضح انطلاق برنامج ربط (مستوطنة) معاليه ادوميم بالقدس". واضاف: "الدولة الفلسطينية تشكل خطرا على اسرائيل، الدولة اليهودية الوحيدة في العالم، وسنواصل البناء للقضاء على حلم الدولة الفلسطينية وانهاء فكرة تقسيم اسرائيل الى الابد".

مخطط ربط مستوطنة معاليه ادوميم، كبرى المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية، بالقدس التي يعتبرها الفلسطينيون والعرب جزءا من الحق الفلسطيني وعاصمة للدولة الفلسطينية، يعني عمليا فصل القدس عن الضفة بالكامل، واستكمال تهويدها لاحقا، ونهاية فكرة الدولة الخاصة بالفلسطينيين والمترابطة جغرافيا.

سموتريتش نفسه، معروف بأنه من المنادين بما يعتبره امثاله من المتطرفين بضرورة تحقيق "الحلم الصهيوني من النيل الى الفرات". وزير الامن القومي ايتمار بن غفير من جهته يقول، وهو من المتحمسين لمشروع ضم الضفة الغربية والقدس نهائيا، ان كل هذه الخطوات تتم بمباركة من الرئيس الاميركي ترامب.

صحيح ان فكرة ضم الضفة الغربية والقدس هي في اساس حلم الصهاينة والحكومات الاسرائيلية المتعاقبة، الا ان القضم والضم كان يجري تدريجا تحت مسميات توسيع للمستوطنات، ولا يواجه عربيا وعالميا، سوى بأصوات التنديد او الاحتجاج. كما انه من البديهي الافتراض، ان حكومة نتنياهو ترى ان الفرصة سانحة امامها لتسريع هذه الخطوات في الضفة الغربية، بعدما واصلت طوال 23 شهرا تدمير غزة بشكل شبه كامل، ونقلت آلتها التدميرية الى مدن ومخيمات الضفة، ولم تواجه بأي شكل من اشكال الاعتراض الجدي على مستوى العالم.

لهذا، فانها ليست صدفة ان تتخذ حكومة نتنياهو قرارها الاخير بوضع خطة الغزو الشامل لغزة واحتلالها بالكامل، حيث وضع 5 مبادئ لهذه الحرب الجديدة، اعتبر انها ما سيضمن امن اسرائيل، والذي هو معنى كلمة "انتصار" بحسب تعبيره في شريط مصور اصدره لاحقا:

- نزع سلاح حركة حماس.
- اعادة جميع المحتجزين (الاسرى) الاحياء منهم والقتلى على حد سواء. نحن لا نتخلى عن احد.
- تجريد قطاع غزة من السلاح وليس فقط نزع سلاح حماس، بل ضمان عدم انتاج السلاح في القطاع وعدم تهريبه اليه.
- سيطرة امنية اسرائيلية على قطاع غزة، ويشمل ذلك المحيط الامني.
- ادارة مدنية بديلة لا تكون حماس ولا السلطة الفلسطينية، بل اشخاص لا يربون ابناءهم على الارهاب، ولا يمولون الارهاب، ولا يرسلون ارهابيين.

تثير الحرب الجديدة لنتنياهو الكثير من الجدال الداخلي في الكيان الاسرائيلي، ما بين مَن يعتبرها غير كافية، وبين مَن يرى احتمالات فشلها، سواء في الحسم الميداني ضد مسلحي حماس الذين سيقاتلون متحصنين من بين الركام والانفاق باعتبارها مواجهة فاصلة، وبين من يخشى من التدمير النهائي لصورة اسرائيل على الساحة العالمية بعدما شاهد مئات ملايين الناس حول العالم صور التجويع والاطفال الذين يتحولون الى هياكل عظمية تحتضر.

بحسب قناة "كان" الاسرائيلية فان الخطة تدريجية، وهي تستهدف مدينة غزة ذاتها للسيطرة عليها، واخلاء جميع سكانها، (نحو مليون فلسطيني) في اتجاه مخيمات الوسط ومناطق اخرى حتى تاريخ

7 تشرين الاول 2025 (اي في ذكرى مرور عامين على عملية طوفان الاقصى).

اما بحسب صحيفة "هارتس"، فان الخلاف بين نتنياهو ورئيس الاركان ايال زامير حول استمرار الحرب، اخطر مما سربته وسائل الاعلام مؤخرا، حيث ان زامير يرى ان احتلال غزة سيكون مأساة بالنسبة الى اسرائيل، ولهذا طالب بازالة بند "تحرير المخطوفين" من بين الاهداف الـ5، لأن العملية العسكرية الواسعة ستقود حتما الى مقتلهم.

كما نقل موقع "واللا" الاسرائيلي عن مسؤولين عسكريين قولهم ان السيطرة على مدينة غزة قد تتحول الى خطر وفخ تكتيكي ضد عدد كبير من الجنود، كما ان الجيش حذر من حالة الارهاق بين الجنود ومن حالة الاليات الثقيلة والدبابات بسبب الحرب المستمرة.

وبحسب "يديعوت احرونوت"، فان قرار حكومة نتنياهو لم يستخدم كلمة "احتلال"، بل استبدلها بكلمة "سيطرة"، وذلك لاسباب قانونية تتعلق بالمسؤولية عن السكان المدنيين تحت سلطة الاحتلال، فيما اكد مسؤول اسرائيلي كبير ان "السيطرة" هو التعريف الرسمي فقط، بينما في الواقع، فان النية هي احتلال غزة، ومن المتوقع ان توجه اسرائيل انذارا نهائيا لحماس للاستسلام بعد تطويق غزة، واذا لم توافق، فان اسرائيل ستدخل المدينة.

مع ذلك، فان صحيفة "نيويورك تايمز" تقول ان الجيش الاسرائيلي يقدر ان احتلال الاجزاء المتبقية من قطاع غزة التي لم تخضع بعد للسيطرة الاسرائيلية سيستغرق شهورا، الا ان اقامة نظام مشابه لاحتلال الجيش للضفة الغربية، سيتطلب ما يصل الى 5 سنوات من القتال.

الاكثر خطورة هو ما لفتت اليه صحيفة "معاريف" التي أفادت "ظاهريا، الى ان خطوة نتنياهو هي للضغط، ولكن مع فتح طرق للخروج"، مشيرة بذلك ضمنيا الى ان الاحتلال سيحاول دفع مئات آلاف المدنيين المنكوبين الى الخروج من غزة، مع اثارة السلطات الاسرائيلية الى تحركات واتصالات تقوم بها تل ابيب، مع دول عدة، لاستقبال الفلسطينيين "الراغبين" (اي المرغمين في ظل القصف والقتل والجوع) على الخروج.

وكانت صحيفة "يديعوت احرونوت" اكثر ◄

وضوحا حول مَن يتحمل مسؤولية تعثر المفاوضات، بقولها انه "بالنظر الى الحقائق، فان مَن انتهك الاتفاقات، ومَن بدأ باطلاق النار منذ اذار الماضي، ومن رفض الدخول في مفاوضات في معظم الاحيان، كانت اسرائيل.. وذلك بعد عراقيل نتنياهو التي ادخلت الى المفاوضات من دون اي مبرر امني". وتابعت قائلة ان اسرائيل "تواصل التصرف كالمقامر الذي يضع المزيد والمزيد من النقود في آلة القمار ولا يفهم ان الكازينو هو الذي يربح دائما"، محذرة من ان الاستمرار في هذا الطريق، يعني احتمالا كبيرا بأن يموت الاسرى.

كان من الواضح ان قرار نتنياهو نقل حربه على غزة واهلها، الى مرحلة جديدة اكثر اجراما، مدفوعا اولا بالغطاء الاميركي الواسع للعمل العسكري ومن دون تحفظات تذكر، ولكن وربما الاكثر اهمية ان رئيس الوزراء الاسرائيلي يريد الاطاحة بكل التحركات الدولية والاعترافات التي نالتها او ستنالها الدولة الفلسطينية، خصوصا بعد بدء اعمال الجمعية العامة للامم المتحدة في 9 ايلول الجاري، والتي ستتحول الى جلسات على مستوى القادة والرؤساء وكبار المسؤولين في 23 من الشهر نفسه.

وكان بيان صدر في ختام مؤتمر وزاري عقد في نهاية تموز الماضي، في نيويورك برعاية فرنسا والسعودية، بهدف احياء حل الدولتين لايجاد تسوية للقضية الفلسطينية، حيث اعلن وزير الخارجية الفرنسي جون نويل بارو ان 15 دولة وجهت نداء جماعيا تعتزم فيه الاعتراف بدولة فلسطين، و"ندعو الذين لم يفعلوا ذلك حتى الان الى الانضمام الينا".

الى جانب فرنسا، انضمت كندا واستراليا، العضوان في "مجموعة العشرين" الى هذا النداء المشترك. كما وقعت دول اخرى على الدعوة، وهي اندورا وفنلندا وايسلندا وايرلندا ولوكسمبورغ ومالطا ونيوزيلندا والنرويج والبرتغال وسان مارينو وسلوفينيا واسبانيا. وسبق لبعض هذه الدول ان اعترفت او اعلنت نيتها الاعتراف بالدولة الفلسطينية، ومن بينها اسبانيا وايرلندا وسلوفينيا والنرويج وفرنسا ومالطا، بعدما كان الرئيس الفرنسي ايمانويل ماكرون قد اعلن عزمه الاعتراف بدولة فلسطين خلال اجتماعات الجمعية العامة.

بينما قال رئيس الوزراء البريطاني كير ستارمر ان لندن ستعترف رسميا بدولة فلسطين في حلول ايلول ما لم تتخذ اسرائيل خطوات ملموسة للسماح بدخول المساعدات الى قطاع غزة، وتلتزم حل الدولتين، وتمتنع عن ضم الضفة الغربية.

لعل من بين اكثر ما يختصر ما يجري في قطاع غزة منذ 23 شهرا، ما خلصت اليه مجلة "ايكونوميست" البريطانية، اذ قالت ان حجم الدمار الذي خلفته الحرب الاسرائيلية يجعلها واحدة من اكثر الحروب تدميرا في التاريخ الحديث، مشيرة الى ان مساحات واسعة من القطاع تبدو من الجو وكأنها سويت بالارض، في حين لا يزال العدد الفعلي للضحايا غير مؤكد.

وبحسب بيانات الوكالة التابعة للامم المتحدة "UNOSAT"، فقد تضرر اكثر من 190 الف مبنى في غزة بحلول نيسان، اي نحو 70% من الهياكل القائمة قبل الحرب، من بينها 102 الف مبنى دمر بالكامل، مما يعني فقدان قرابة 300 الف منزل، بينها 77% من المباني السكنية. وهناك 53.5 مليون طن من الانقاض، بزيادة بلغت 133% خلال 15 شهرا.

وفق التقرير، ان الحرب اجبرت سكان غزة، الذين بلغ عددهم قرابة مليوني نسمة، نصفهم من الاطفال، الى الانحسار في 12.7% فقط من مساحة القطاع بسبب القصف والنزوح، حيث يعيش كثيرون اليوم في خيام وسط واحدة من اكثر المناطق اكتظاظا بالسكان في العالم، بينما قتل عشرات الالاف (ما بين 60 الف شخص و90 الفا اكثر من نصفهم من النساء والاطفال او كبار السن فوق سن 65)، مع انهيار خدمات الرعاية الصحية والصرف الصحي ونقص الغذاء والذي تسبب بوفاة ما بين 4500 و12.5 الف شخص لاسباب غير مباشرة حتى كانون الثاني. كما يشير التقرير الى ان ما نسبته ما بين 4-5% من اجمالي سكان غزة قبل الحرب، قد قتلوا. اما بالنسبة الى الناجين، فانهم يواجهون مستقبلا قاتما، بينما قدرت كلفة اعادة الاعمار في شباط بـ53 مليار دولار، اي اكثر من ضعف الناتج المحلي الاجمالي لغزة والضفة الغربية قبل الحرب.

الحاجة الى نكبة!

رأى رئيس شعبة الاستخبارات السابق اهارون هاليفا ان وجود 50 الف قتيل في غزة هو امر اراه ضروريا من اجل الاجيال المقبلة، في مقابل كل اسرائيلي قتل في 7 تشرين الاول، يجب ان يقتل 50 فلسطينيا، لا يهم اذا كانوا اطفالا ام غير ذلك، انا لا اتكلم بدافع الانتقام، بل اقول ذلك كرسالة للاجيال المقبلة، هم في حاجة من حين الى آخر الى نكبة، كي يشعروا بالثمن.